الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد
لينين وستالين

ليست هي المرة الأولى التي يحاول فيها بعض الناس الهروب إلى الأمام حين يجدون أنفسهم أمام حقائق ووقائع سبيل إلى تجاهلها . فالتكيف للمستجدات أمر يحتاج إلى الكثير من الوعي والإرادة ولنا في قصة النظام الشيوعي منذ عام ١٩١٧م من هذا القرن حتى النصف الثاني من العقد الثامن من القرن نفسه الآية والعلامة.

إنها قصة لينين الذي وصفه الشيوعيون في خاخة مؤسس الماركسية ثم جاء بعده ستالين الذي قيل أنه فرض نفسه على دولة النظام الشيوعي رغم سلبية لينين وخوفه من انتقال مقدرات الدولة إليه.

وستالين هو الحاكم الدموي الذي فرض أسطورة المجتمع السعيد الذي يرتفع فوق قواعد الشيوعية الأممية وهو الذي جعل من نفسه الأب الرفيق الشفيق بشعوب الإتحاد السوفياتي في الوقت الذي كانت فيه ضحايا ابدته الرفيقة الشفيقة . تتساقط بين يديه بدعوى الانحراف أو الخيانة . والحقيقة أن الرؤوس المتساقطة كانت رؤس رجال استمروا يحتفظون ببقية من الاحساس بالكرامة والرجولة أو من مشاعر العدالة والمسؤولية .

ومات ستالين وانكشفت الخفايا وعرف العالم حقيقة الفضائح التي كانت تزكم النفوس وشجبت ذكرى هذا الرجل وأدين بصورة رسمية ودمرت تماثيله . لكن القيادات السوفياتية التي ورثت سلطاته لم تجرؤ على الاعتراف بالحقيقة التي تقرر أن شخص ستالين لم يكن غير افراز من افرازات الفكر الماركسي والنظام الذي جسد هذا الفكر.

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

لقد احتاجت هذه القيادات إلى اللجوء إلى الكثير من المكابرة والاستمرار في تغذية الشعارات المموهة لحقيقة ما يجري في الداخل . واستطاعت هذه القيادات أن تزين للكثير من الشغوب المغلوبة على أمرها بأن المستقبل هو لصالح المنادين بالماركسية الأممية . حتى إذا لم تعد سبيل إلى اخفاء التناقضات الفاضحة والقائمة بين الشعارات والوقائع ، واختنق الاقتصاد السوفياتي وأصبحت الدولة منه على شفا جرف هدر، ظهرت القيادة التي وجدت نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما :

١) أن تبقى شاهدة على اقتراب النظام من الهاوية والسقوط فيها مع الساقطين.

٢) أن تقرر التكيف للمستجدات وتتنازل عن امتيازاتها وتوافق على انفصال المستعمرات الملحقة بامبراطوريتها من أوروبا الشرقية وأخيراً أن تقرر طرح مبدأين جديدين ينتقض بها بناء الأسس التي قام عليها النظام .

****

وكان الخيار الثاني هو الذي لجأت إليه لا لأن الرئيس ميخائيل غورباتشيف هو الذي اختار هذا الاتجاه بل لأن رجال النظام وجدوا من الضرورة القيام بهذا التكيف حفاظاً على النظام مقابل خسارتهم لبعض الامتيازات التي كان يتمتعون بها .

وقد رمز إلى هذا التكيف بشعارين : البيريسترويكا أو إعادة البناء ، والفلاسنوست أو المصارحة.

أما إعادة البناء فتعني إسقاط المسلمات الأساسية في النظام التقليدي . واما المصارحة فتعني منح الشعوب السوفياتية حق المناقشة والاعتراض .

****

فالرئيس غورباتشيف لم يجد باسم القيادة الشيوعية أي حرج في شطب أسس النظام التقليدي والتنكر لقيمه وشعاراته كما أنه لم يتردد في التنازل عن العلاقات الفوقية التي كانت تربط دول أوروبا الشرقية بامبراطوريته .

وإذا كان هناك ما يحمد الرئيس السوفياتي عليه فهو أنه سجل باسمه وباسم القادة السوفيات الاعتراف بفشل آباء النظام في تجسيد الطوابويات التي طالما رددتها أبواقهم الاعلامية على امتداد سبعين عاماً .

****

ونحن هنا لا نحاول أن نحاكم القيادة السوفياتية الحالية . فقد قلنا وقال غيرنا الكثير عن الشروخ التي برزت في بنية النظام الشيوعي . ولعل ما قاله القادة السوفيات أنفسهم أن يكون أقوى تعبير عن افلاس الأممية والملكيات المؤممة والاقتصاد الموجه . وهذه الحقائق لا يخفيها ما ردده ويردده رجال النظام اليوم من أن البيريسترويكا والفلاسنوست سيتحققان في اطار الحفاظ على الاشتراكية .

****

ومن الطبيعي أن تختفي أصوات القيادات الخارجية التي ربطت نظمها لسنوات طويلة بالنظام السوفياتي أو على الأقل أن تتضاءل هذه الأصوات شيئاً فشيئاً . باستثناء صوتين أحدهما في أقصى الشرق وثانيهما في أقصى الغرب .

أما في أقصى الشرق فهناك الصين الشعبية التي ركبت قيادتها رأسها وأصرت على تجاهل الضرورات السياسية والاقتصادية التي فرضتها طبيعة الأشياء . وكانت المذبحة التي جرت في ساحة تياتنمن في بكين والتي سقط من جرائها الألوف من الجامعيين الشباب ثمناً للسياسة الصينية المحافظة .

وهناك ألف شاهد وشاهد على أن هذه المذبحة قد أجلت يوم الإنتفاضة ولم تقض على أسبابها الكامنة . وقد علمنا التاريخ أن الوقوف ضد تياره وتجاهل ضروراته تضاعف من ضغوطه وتغذي طاقة التفجير في طياته .

والثابت أن المعسكر الغربي الذي يتعامل مع دول العالم لا يضع في حسابه القيم التي ترددها شعاراته بل يضع حقيقة وحيدة هي موازين القوة وضغوط المصالح وحسب.

****

وأما في أقصى الغرب فان نظام فيدل كاسترو في جزيرة كوبا هو الصوت الثاني الذي رفض السير وراء الردة السوفياتية وأصر على الالتزام للشعارات التي طالما رددها حفاظاً على مكاسبه المزعومة من النظام الاشتراكي الذي فرضه على شعبه . وإذا كان حجم الصين والظروف الداخلية فيها قد مكنت هذا البلد الكبير من الصمود أمام المتغيرات السياسية والاقتصادية في المعسكر الشيوعي فان حجم فيديل كاسترو والدولة التي يتصرف بمقدراتها لا يسمحان له بركوب رأسه في تقدير كثير من المراقبين . ودراستنا لما يجري داخل جزيرته تساعدنا على تقييم السياسة التي يلتزم لها ويصر على الاحتفاظ بها . والتحقيقات التي أجريت في بلاده بعيداً عن رقابته تساعدنا على وضع صورة واقعية للظروف والأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي تشيع في بلاده .

****

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر بأن رياح البيريسترويكا التي تهب من كل حدب وصوب في البلدان الاشتراكية لم تستطع أن تخفي حقيقة واقعة هي أن كوبا لا تزال حريصة على الالتزام بالنظام الشيوعي المحافظ .

ففيديل كاسترو يؤكد بأن التغييرات التي حدثت في بلدان الشرق هي خيانة حقيقية فاضحة . والواقع أيضاً أنه في الوقت الذي يتزايد فيه التقارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي فان نظام فيديل كاسترو يزداد عزلة عما يجري في الخارج .

ومن الطبيعي أن يفقد الزعيم الكوبي مساندة شعبه له أو فئة كبيرة من شعبه على الأقل . ولكي يحافظ على سلطته فانه كما يبدو الآن راح يضاعف نشاطه الاعلامي الذي يوحي لشعبه بأن غزواً أميركياً لبلاده أصبح وشيكاً . وخلاصة القضية التي يردد الحديث عنها تتبدى في شعاره الأساسي : " **الاشتراكية أو الموت** " .

****

ماذا يقول شاهد عيان عما يجري داخل كوبا ولا سيما العاصمة هافانا ؟ :

" دوي طلقات المدافع المضادة للطائرات يتردد بين مباني جادة ما ليكون التي مياه البحر. واللهب الأصفر الذي ينبجق من أنابيب المدفع الأربعة تثير الفتيان الكوبيين الذين يتحلقون حول بطارية المدفعية المصنوعة في الاتحاد السوفياتي .

وهناك فتاة جالسة على مقعد الرامي تغلق عينيها كلما انطلقت القذائف من الأنابيب الأربعة . أما الفتيان الذين يقفون حولها فانهم يرددون قائلين صارخين : تابعي اطلاق النار ... ولتسقط البانكي " الأميركيون " ...

الثورة أو الموت . وإلى جانب بطارية المدفعية يقوم رجل بلباس الجندية بتوزيع الكلاشنيكوف على عدد من الفتيان والفتيات الذين تستفزهم الحماسة .

وقد ظهرت على الشاطىء ثلاث بطاريات مدفعية يتولى الفتيان والفتيات اطلاق النار في الوقت الذي تبرز فيه فوق مياه البحر ثلاث سفن قديمة تصوب نحوها قذائف المدافع .

وتتعاقب مراحل التدريب حين يعلن أحد الضباط بأن رجال اليانكي بدأوا يقتربون من مياه الشاطىء ويطلب من الفتيان والفتيات القيام بهجوم مضاد .

****

هذه الظاهرة تتكرر في العاصمة هافانا مرتين أو ثلاث مرات في كل أسبوع . كما يشاهدها السائح في مناطق متعددة من الجزيرة حيث يحتمل أن ينزل الغزاة الأميركيون .

****

والحقيقة أن من يذهب اليوم إلى كوبا لا بد وأن يكتشف عالماً جديداً منطوياً على نفسه بدعوى أن غزواً أميركياً للجزيرة أصبح وشيكاً كما تردد أجهزة الاعلام الكوبية .

وهكـذا يتعـرض الشـعب الكـوبي في كـل يـوم لهـذا النـوع مـن الإثارة . والمقصـود مـن هـذه التوجيهـات اليوميـة هـم شـباب الـبلاد الـتي تبـين أن نسـبة مـن هـم دون الثلاثـين مـن العمـر تبلـغ ٥٨ في المائـة مـن مجمـوع السكان .

****

يقـول فيـديل كاسـترو : " **إن مـا نحتـاج إليـه ونتمنـاه هـو تطـوير وتحسـين الاشـتراكية لا القضـاء عليهـا . وهذا ما يحدث فعلاً . ".**

وفي رأيـه أن بولونيـا وتشيكوسـلوفاكيا وهنغـاريا وبلغـاريا قـد خانـت كـوبا بطريقـة مقـززة للـنفس حـين اقـترع منـدوبوها لصـالح مشـروع القـرار الأميركـي الـذي يشـجب نظـام كـوبا أمـام لجنـة حقـوق الإنسـان التابعـة لمنظمـة الأمـم المتحـدة والمنعقـدة في جنيـف . هـذه الخيانـة هـي قـذارة مقرفـة في نظـر كاسـترو والـذي يقـول أيضـاً : " **إننا دون شعب موحد ومنظم ومسلح للدفاع عن الثورة ، لا نستطيع أن نجابه الولايات المتحدة".**

****

والواقـع أن النظـام الكـوبي أذ يصـور العـدوان الأميركـي علـى أنـه أمـر حـادق في مسـتقبل قريـب أو بعيـد فأنـه يغـذي في النفـوس العصـبية الوطنيـة . وهـو يفعـل ذلـك في محاولـة منـه للفـت انظـار الكـوبيين الـذين يواجهون المزيد من الصعوبات في الحصول على الضرورات المعيشية يوماً بعد يوم .

أن عبـارة " غـير موجـود " هـي الـتي تتكـرر في الغالـب علـى ألسـنة البـائعين أمـام الـزبائن في المطـاعم أو في المحـلات التجاريـة مـا لم يكـن هـؤلاء مسـتعدين لـدفع الـثمن بالـدولار الأميركـي " عملـة الشـيطان " . ومـع ذلك فالناس في كوبا يتهافتون للحصول على هذه العملة .

وبسـبب مـن انتفـاء مبـدأ الييريسـترويكا في تلـك الجزيـرة فـان السـياحة هـي وحـدها المصـدر الكبـير للعملـة الأميركيـة . والحقيقـة أن نظـام كاسـترو يعتمـد اعتمـاداً رئيسـيا علـى مـا يحملـه السـواح الأجانـب إلى بـلاده ممـن يحبون تعريض أجسامهم لأشعة الشمس .

وعـدد هـؤلاء السـواح كمـا تقـول الأنبـاء الرسمية يبلـغ ٢٠٠ ألـف أكثـرهم مـن الكنـديين والأوروبيـين . ومـن المنتظـر أن يبلـغ عـدد القـادمين عـام ١٩٩٢ نصـف مليـون ثم يرتفـع الـرقم إلى مليـوم عـام ٢٠٠٠ م إذا سـارت الأمور سيرها الطبيعي .

والجـدير بالـذكر أن الـذين يأتـون إلى الجزيـرة لا يعـود أكثـرهم بعـد ذلـك إليهـا. ومـا يلفـت النظـر أن أكثـر الفنـادق السـياحية في الـبلاد قـد بنيـت في أعـوام الخمسـينات . وقـد بـنى الأميركيـون منهـا في هافـانا فنـدق هافـانا الحـر " هيلتـون سـابقاً " أو الـريفييرا . ومنـذ الخمسـينات لم يتغيرشـيء أو يكـاد . امـا المصـاعد فتعمـل حينمـا يحلـو لهـا ذلـك ، والأثاثات قـد بـدت عليهـا معـالم التعـب والإرهـاق . حـتى الصـنابير تحـدث صـخباً حـين تجـري فيهـا الميـاه . أمـا الخـدمات في المؤسسـات السـياحية فهـي تـذكر بمثلهـا في دول أوروبا الشـرقية رغـم مـا عرف عن الكوبيين من السماحة وحسن المعاملة.

والجـدير بالـذكر أن العـاملين فيهـا يبـذلون جهـدهم في تقـديم الخـدمات المطلوبـة لكـن الادارات في الفنادق تضع الكثير من العراقيل والتعقيدات في غير نهاية .

****

ولا غرابـة في ذلـك فالنـادل الـذي يعمـل في فنـدق مـن الفنـادق لا يمتعـه أبـداً أن يـرى سـائحاً ينفـق في الوجبـة الواحـدة مـن الـدولارات مـا لا يحصـل عليـه في الشـهر كلـه . يضـاف إلى مـا سـبق حـرص السـلطات علـى الحيلولـة دون أي اتصـال بـين الكـوبيين والأجانـب . وقـد حـدث فعـلاً أن زوجـين مـن باريـس أخـذا يتبـادلان الحـديث مـع شخصـين كـوبيين ممـن يعرفـون اللغـة الفرنسـية . فكـان الاعتقـال هـو نصـيب هـذين الأخـيرين . وعنـدما تـدخل المواطنـات الباريسـيان لاثبـات بـراءة الـرجلين طلـب إليهمـا بكـل جفـاء عـدم التـدخل فيمـا لا يعنيهمـا . يضـاف إلى مـا سـبق أن السـجن هـو عقوبـة كـل كـوبي يحصـل علـى دولارات أميركيـة . ومـع ذلـك فإنـه جينـز ولا صـابون ولا دواليـب سـيارات دون دولارات . ويـروي المراسـل الصـحفي يازيـك فورسـتيا أن مجهـولا أخـذ حذاءيـه بينمـا كـان يسـتحم في مبـاه البحـر. فمثـل هـذه السـلع يـندر وجودهـا في المحـلات التجاريـة . الأحذيـة الوطنيـة هـي وحـدها الـتي يحصـل عليهـا النـاس بموديـل وحيـد ومقاسـات محددة .

****

ومما يلفت النظر أن هافانا في حاجة ماسة إلى مائتي ألف منزل لحل مشكلتها السكنية . والخلاصة أن كل شيء تغير عما كان عليه قبل كاسترو . وكل شيء يبدو وكأن الدنيا في كوبا قد توقفت عن المسير عام ١٩٥٩م . أما السيارات فان موديلاتها تعود إلى أعوام الخمسينات باستثناء سيارات لادا وسيارات الجيب صنع الاتحاد السوفياتي التي تملكه الدوائر الرسمية .

وهافانا مدينة عابسة تخلو من المحلات التجارية الصغيرة ومن تجارة البرتقال والحامض مع العلم أن كوبا بلاد متخصصة في إنتاج الحمضيات . وفي المساء تخلو الشوارع من المارة تقريباً .

وقد لاحظ باتريك فورستيا المراسل الصحفي لمجلة باري ماتش أن سيارات الثلج لا تكاد تقف في الشارع حتى يزدحم الناس حولها للحصول على قطعة من الثلج . والناس يقفون صفوفاً طويلة للحصول على حاجتهم من الخبز أمام المخابز التي تخلو من سلعتها دون أن يحصل الجميع على حاجتهم منها.

أما الأدوية فأكثرها مصنوع من الأعشاب والشأن نفسه في محلات الجزارة . ولا يحصل المواطن على حصته من اللحم إلا بصعوبة مع العلم أنه لا يفوز إلا بثلاثة أرباع الكيلو غرام في كل شهر.

ولا ننسى أن بيع الدجاج مقنن وكذلك الأرز والفاصوليا السوداء منذ العام ١٩٦١م. والخلاصة أن الكوبيين يعيشون بفضل بطاقات التموين التي قيل لهم في بداية الستينات أنها وقتية فأصبحت دائمة.

وخلاصة القول أن الاشتراكية العلمية وتأميم الأراضي قد أحدثا من الأضرار ما يشبه تلك التي ظهرت في بولونيا وفي الإتحاد السوفياتي .

يبقى أن نتساءل عن طبيعة العلاقات بين كوبا والإتحاد السوفياتي بعد أن تمرد فيديل كاسترو على الولايات المتحدة رمز الإستعمار وعنوان العدوان على الشعوب ! هل صحيح أن كوبا قد تذوقت طعم الحرية حقاً حين ربطت مصيرها بالإتحاد السوفياتي ؟ هذا التساؤل يمكن أن نجيب عنه في حلقة قادمة إن شاء الله .

- **القادة السوفيات يتخوفون من أن يفقد الإتحاد السوفياتي دوره كقوة عظمى.**
- **البيريسترويكا والفلاسنوست مبدآن للحفاظ على رسالة السوفيات التاريخية .**
- **راحة المواطن ليست مما وضعت له السياسة الجديدة بل هو الخوف من الإنهيار الإقتصادي .**
- **القادة يوافقون على التضحية ببعض امتيازاتهم أما دورهم القيادي فلا يتنازلون عنه .**